

الحوانيت والمرافق العامة في مدينة الجزائر العثمانية

أحمد سلطاني
جامعة المدية

يتوزع النشاط التجاري في الجزائر في العهد العثماني على المدن الكبرى في شكل أسواق موسمية وأسبوعية، ومن أهم هذه المدن نجد مدينة الجزائر بصفتها عاصمة العثمانيين وعاصمة البلاد.

وقد شهدت مدينة الجزائر نشاطات تجارية مختلفة وهذا ما تؤكدته كثير من المصادر المحلية والأجنبية.

وكان النشاط التجاري بها يتم في وسط المدينة، شأنها في ذلك شأن معظم المدن العربية الكبرى في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث كان النشاط الاقتصادي يوجد في مركز المدينة⁽¹⁾.

لكن في هذه المدينة ما نوع المحلات ذات النشاط التجاري؟ وماهي المحلات التي تقوم بالخدمة العامة؟ وماهي مواقعها الجغرافية بالمدينة؟

الملاحظ في مدينة الجزائر أن ماعدا الخدمات التجارية التي تقدمها الأسواق اليومية بمختلف تخصصاتها، هناك خدمات أخرى تقدمها بعض المحلات والتي يمكن أن نقسمها إلى قسمين :

1) الحوانيت :

إن المقصود بالحانوت محل التاجر وورشة الصانع⁽¹⁾، وهي أساس النشاط الاقتصادي في الأسواق، وفي الأحياء التجارية على السواء⁽²⁾.

والحوانيت في مدينة الجزائر على نمطين: نوع يختص في حرفة معينة أو صنعة معينة وتوجد في الأسواق المخصصة لذلك، ونوع آخر يبيع كل شيء، أو يختص في بيع المواد الغذائية وتوجد في الغالب في شتى أنحاء المدينة لحاجة الناس إليها يوميا.

وما يميز هذه الحوانيت صغر حجمها ووقوعها في شكل حجرات متقابلة على جانبي فناء كل سوق أو حي تجاري، ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق وغرف كثيرة. وقد ترك لنا الرحالة الألماني فاغنر⁽³⁾ عن حوانيت مدينة الجزائر وصفا جاء فيه: "...هي عبارة عن دور تشبه الدور العربية في شكل حجرات الواحدة منها منفصلة عن الأخرى، والعادة المتبعة منذ القديم هي أن الأجنبي أو الجزائري أو اليهودي يكتري في السوق محلا أو عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك، ويعرض في أبوابها بضاعته، ولم يكن يعدم من يزور محله... أما دكاكين التجار من الأهالي فإنها صغيرة تافهة ليس فيها تنوع في البضائع، ولا تلفت الأنظار إليها إلا بشكلها... وهذه الدكاكين عبارة عن ثقب مربعة، تغلق في الليل بباب خشبي مهترء، ولا نستثنى منها إلا الدكاكين الموجودة في شارع باب الديوان، لأن بضائعها متنوعة ومنظمة تدل على ذوق أصحابها، وهم في الغالب من الكراغلة... والحضر وأثرياء في أغلب الأحيان..."⁽⁴⁾.

وقد كان الشارع الكبير الممتد من الجنوب إلى الشمال على طول شارع باب عزون - باب الوادي من أهم شوارع مدينة الجزائر⁽⁵⁾ خلال العهد العثماني، لكثرة المحلات التجارية به، والتي كانت تصطف عن يمينه وشماله.

وقد قدر بعضهم عدد المحلات التجارية بمدينة الجزائر خلال سنة 1760م بـ 350 محلا⁽⁶⁾، وأحصاها مصدر آخر بـ 258 محلا في أواخر العهد العثماني⁽⁷⁾.

(2) المرافق العامة :

وهي المحلات التي تقدم الخدمات الإضافية في الحياة العامة وذات صلة بالنشاط التجاري ومنها:

أ-الفنادق :

منشآت ذات طابع تجاري أكثر منه اجتماعي أو سياحي بالمفهوم المعاصر، حيث في مدينة الجزائر كانت الفنادق مخصصة لإيواء التجار الجزائريين منهم والأجانب، ولحفظ السلع والبضائع، وكانت الفنادق في أغلبها تتميز وتتخصص في ترويج تجارة معينة أو حرفة معينة حيث نجد فندق الزيت، فندق الروز، فندق الشماعين، إلا أن القليل منها عرف بتسميات لاتعكس النشاط التجاري الممارس بها وذلك لتنوع نشاطها التجاري أو أنها عرفت بأسماء أصحابها كفندق علي بتشين، وفندق بن تركية، وفندق الجرابة⁽⁸⁾...

وكان على رأس هذه الفنادق قائد، أو أمين يسيرها، ولها تنظيم شبيه إلى حد ما بتنظيم الطوائف الحرفية⁽⁹⁾، والمصادر التي تتطرق إلى الوصف الدقيق لهذه المنشآت معلوماتها شحيحة جد أو معظمها من المصادر الغربية والمتمثلة في تراجم الرحالين والأسرى، حيث نجد الرحالة شاو يذكر بأنه هناك العديد من الفنادق للإقامة⁽¹⁰⁾، أما الأسير الأمريكي كاثكارث⁽¹¹⁾ فقد نوه بأن المدينة بها عدة فنادق كان يقيم بها الأتراك المتزوجين والمتقاعدين منهم ممن لا مال لهم⁽¹²⁾، وأما الدبلوماسي رفتيلوس⁽¹³⁾ فيشير إلى أن الفنادق العصرية والضرورية لاستراحة المسافرين لا وجود لها بالجزائر⁽¹⁴⁾.

وبالاستعانة بإحصاء طال شوفال وبعض الدراسات الحديثة المتميزة يمكن حصر فنادق مدينة الجزائر خلال العهد العثماني والمربطة بنشاط الأسواق في الجدول التالي:

فنادق مدينة الجزائر⁽¹⁵⁾:

<p><u>الناحية الشرقية</u></p> <p>فندق البباد</p> <p>فندق الهوى</p> <p>فندق المارستيان</p> <p>فندق السراجين</p> <p>فندق البرادعية</p> <p>فندق الفكاهين</p> <p>فندق يكييم سلمان</p> <p>فندق الجديد سوق السممن</p> <p>فندق الزيت</p> <p>فندق الروز</p> <p>فندق علي بتشين</p> <p><u>وسط المدينة</u></p> <p>فندق الفرارية</p> <p>فندق الشماعين</p> <p>فندق القهوة الكبيرة</p> <p>فندق الدروج</p> <p>فندق الدخان</p> <p>فندق الصفارين</p> <p>فندق المكاوين</p>	<p><u>ناحية باب عزون</u></p> <p>فندق باب عزون</p> <p>فندق الجديد</p> <p>فندق أسفل جامع ميزومورتو</p> <p>فندق العزارة</p> <p>فندق الحاج حسين</p> <p>فندق العسل</p> <p><u>ناحية باب الوادي</u></p> <p>فندق باب الوادي</p> <p>فندق حي لalahم</p> <p>فندق الخطيب</p> <p><u>الناحية الوسطى</u></p> <p>فندق المحتسب</p> <p>فندق كتشاوة</p> <p>فندق المراجني</p> <p>فندق الديوان</p> <p>فندق الشبارلية</p> <p>فندق السوق الجديد</p> <p>فندق الكرموس</p> <p><u>ناحية باب الجزيرة</u></p> <p>فندق القشاش</p>
--	---

ب-المقاهي :

عرفت المقاهي انتشارا واسعا في مدينة الجزائر وبخاصة في الطريق المؤدي إلى الميناء، حيث كانت تبلغ حسب فاغنر نحو ستين مقهى، وتكون في أغلب الأحيان مكتظة بالزوار الذين يقضون فيها معظم النهار في الحديث وشرب القهوة والتدخين واللعب، واهم ما يميز هذه المقاهي طريقة الجلوس حيث كان الأتراك يجلسون على المقاعد. في حين البقية من الأهالي والأجانب كانوا يجلسون على الحصير المفروش على الأرض، وكانت لا تخلو من الموسيقى والغناء بعد صلاة الظهر إذا كان عدد الزبائن كبيرا⁽¹⁶⁾.

وهي أيضا مكان لعقد الصفقات التجارية، كما هو المكان الذي يقصده الأجنبي قصد الاحتكاك بالأهالي بهدف التعرف على حقيقة السكان وتعلم لغتهم.

ج-الخمارات :

أجازت الحكومة الجزائرية إقامة الخمارات خارج سور المدينة، وكان يديرها العبيد أو الأسرى فقط، مقابل أداءات سنوية تتناسب وكمية الخمر التي يبيعونها، وكانت تباع فيها من غير الخمر، الدخان، والخبز، وأنواع مختلفة من المأكولات المتداولة في البلاد، أما رواد هذه الحانات فهم غالبا ما يكونون من الأسرى المسيحيين، والعسكري، والصعاليك الذين يقضون الوقت في مقارعة الخمر، والتدخين، والحديث، وكانت الدولة تعاقب المسلمين منهم إذا ما ثبتت التهم عليهم.

والخمارات غالبا ما تكون في محلات بسيطة جدا شبيهة بالمخازن، تستعمل فيها القناديل طول النهار، وتختلف في الكبر حسب حاجيات الاستعمال التي يديرها صاحبها⁽¹⁷⁾.

د-الحمامات :

عرفت الحمامات هي الأخرى انتشارا واسعا، حيث كانت توجد في معظم أحياء المدينة، وهي من الأماكن العامة التي يقصدها الرجال والنساء على السواء، وكانت تناقش فيها الأعمال التجارية والأمور العائلية وأمور الزواج، وكانت تتميز ببنائاتها الواسعة وغرفها الكثيرة المجهزة بالماء البارد والساخن⁽¹⁸⁾.
مما سبق يتضح لنا أن مدينة الجزائر كانت تعيش حياة اجتماعية حيوية. وذلك بفعل ماعرفته من أنماط تجارية وخدمانية كثيرة ومتعددة، وذات نوعية لاترك الزبائن يفتقدون لأي شيء في حياتهم اليومية، وهذا التميز على مستوى الخدمات ساهم فيه بشكل واضح وجلي التنوع العرقي لمجتمع المدينة، والذي كان يمارس نشاطات تجارية وحرفية متباينة.

الهوامش:

- (1) مالتسان، هاينريش فون، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة: أبو العيد دودو، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1986، ج 2، ص 113.
- (2) Shuval (T)، la ville d'Algèr vers la fin du XVII siècle، population et cadre urbain، ed. du pp.198.، 1998، paris، C.N.R.S.
- (3) فاغنر: عالم طبيعى ورحالة ألماني (1813-1887)، زار الجزائر سنة 1836 كمراقب وجامع للأشياء الطبيعية ومكث بها ثلاث سنوات توجت بوضعه كتابا عن الجزائر بعنوان: (رحلات في ولاية الجزائر سنوات 1836، 1837 و1838) صدر في مدينة لايبتيغ سنة 1841. عن حياة فاغنر انظر: - دودو، أبو العيد، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855)، الجزائر: م.و.ك، 1989، ص ص 77-78.
- (4) دودو، أبو العيد، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855)، الجزائر: م.و.ك، 1989، ص ص 110-111.
- (5) نور الدين، عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي. الجزائر دار الحضارة، ص 130.
- (6) بن حموش، مصطفى أحمد، المدينة والسلطة في الإسلام (نموذج الجزائر في العهد العثماني)، دمشق: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1999.

- SHUVAL (7)، Op.cit.، 200، p200.
- (8) غطاس ، عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830)، الجزائر: منشورات ANEP، ص 217.
- (9) RAYMOND. Grandes villes...op.cit.p251
- (10) SHAW. Voyage dans la Régence, op.cit.p291
- (11) كاثكارت جيمس ليندر: أسير أمريكي في الجزائر في الفترة: 1785-1786 م ، أصبح من كبار موظفي الداي محمد عثمان باشا، قام بمهام القنصل لبلاده في طرابلس بعد تحرره. للمزيد حول حياته انظر:
كاثكارت، جيمس، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتقديم وتعليق: اسماعيل العربي، الجزائر د.م.ج، ص 13
- (12) كاثكارت، جيمس، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ص 62.
- (13) كارل رفتيليلوس: سكرتير بأول قنصلية سويدية أنشأت بالجزائر سنة 1730 م ، بقي بها إلى سنة 1732 م. للمزيد انظر:
- المازوي بديرة، "حياة اللهو وخدمات الخمارات والمقاهي والفنادق في الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر"، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ج 1+ج 2، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، زغوان م.د.ب.ع.م.ت.م، 1988، ص 97
- (14) المازري، بديرة، "حياة اللهو وخدمة الخمارات..."، المرجع السابق، صص 101-102.
- (15) Shuval (T)، Op.cit.، 243-245، p243-245.
- وانظر: - الشومهد، عبد الله بن محمد، قانون أسواق مدينة الجزائر، تحقيق وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني، بيروت: د.غ.إ، ط 2006، 1، ص 31-32.
- سعيد، العربي "الأسواق والحرف في مدينة الجزائر على ضوء المصادر المحلية 1520-1830، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة سيدي بلعباس، 2008، ص 65.
- (16) دودو، أبو العيد، المرجع السابق، ص 112-113.
- (17) المازري، بديرة، المرجع السابق، ص 98-100.
- (18) سبنسر، وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم: عبد القادر زبادية، الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع، 2006، ص 98.